دلالة التعريف والتنكير في القرآن الكريم (آيات التعصّب والعناد انموذجاً)

أ.م.د . عزيز سليم علي القريشي الباحث: عباس يونس حمزة

جامعة واسط – كلية التربية

المُلخّص

التعريف والتنكير من الظواهر البارزة في اللغة العربية، والمميزة لها، وهما مشاركان في بناء الجملة، من الناحية التركيبية والدلالية، فالمعرفة لها دلالة معينة، كذلك النكرة، لها دلالتها الخاصة بها، فليس من الصدفة أن يُعرّف الاسم أو يُنكّر .

وتناول النحويون ظاهرة المعرفةَ والنكرةَ في كتبهم ودراساتهم، وذكروا أقْسام المعارف، كالضّمير، والعلم، والاسم الموصول، واسم الإشارة، والمُعرّف بـ (أل)، وغيرها، وكان حديثُهم من الناحية الإعرابية المحضة، أمّا علماء البلاغة؛ فقد تناولوا هذه الظاهرة من زاوية أُخرى، فتحدّثوا في أغراض التعريفِ، سواء أكان هذا التعريفُ بالضمير أم بغيرِهِ، وتحدّثوا في دواعي التنكير، وهم حينما يذكرون بعض الأغراض والدواعي؛ فإنما يفتحون بذلك الباب للغوص في الكلام البليغ، فيُلتقطُ منه الدُرر، وتدرك بعض الدواعي التي لم تذكر؛ لتُستخرج بالحسّ والذهن والذوق (١)

تناول سيبويه ظاهرة التعريف والتنكير، وقال: "واعلم أنّ النكرة أخفُّ عليهم من المعرفة، وهي أشَدُّ تمكّناً؛ لأن النكرة أوّل، ثمّ يدخل عليها ما تُعرّف به، فمن ثَمّ أكثرُ الكلام ينصرفُ إلى النكرة"(٢)، أي أنّ النكرة تأتي أوّلاً، ثم تأتي المعرفة بعدها .

وبحثَ الجرجاني مسألة التعريف والتنكير، ويكادُ أن يعدّ المخاطب الركيزة الأساسية فيهما، وإن كان هذا لا ينفي وجود المتكلم في الصياغة باعتبار المتكلّم هو المصدر والخالق(٣) .

ويُعدّ (التعريف والتنكير) "من أدوات الدلالة على المعاني، فكلاهما يدل على معين، إلا انّ الفرق بينهما، أنّ النكرة يفهم منها ذات المعين فقط، ولا يفهم منها كونه معلوما للسامع؛ لأن النكرة بمفردها تدل على الإطلاق، وأما المعرفة فيفهم منها ذات المعين ويفهم منها كونه معلوما للسامع لدلالة اللفظ على التعيين"(٤) .

وللتعريف والتنكير أثرٌ "في النظام النحوي للغة العربية، فتعريف عنصر من عناصر التركيب أو تنكيره قد يؤدي إلى تغيير التركيب أو تعديله نظماً ودلالةً، بل قد يؤدي إلى أن يكون التركيب غير صحيح نحويا"(٥)، أي أنّ للتعريف والتنكير أثر كبير في التركيب النحوي، وينبغي على المتكلّم أن يكون حذراً في استعمالهما، لأن أي تغيير فيهما قد يؤدي إلى تغيير دلالة التركيب النحوي .

وللتعبير القرآني مميزاته التي تميّزه عن غيره، ولهذا فإنّ التغيير في تركيب تعبير القرآن بين التعريف والتنكير يرجع إلى "أن لكل منهما مقاماً لا يليق بالآخر"(٦) .

وحينما نقف على هذه الظاهرة في القرآن الكريم عامّةً، وآيات (التعصّب والعناد) خاصة، يسترعي انتباهنا دقّة اختيار اللفظ من حيث تعريفه وتنكيره، وهذا ما يبرز بلاغة النظم القرآني وجماله، عن طريق تعدّد مقاصد التنكير والتعريف في السياق القرآني الذي يُحدّد الغرض البلاغي، لأنّ كلاً منهما يكون الأليق في مكانه، وحسب ما يقتضي السياق(٧)

قسّمتُ هذا المبحث على تمهيد ومحورين، تناولت في التمهيد التعصّب والعناد في اللغة وفي الاصطلاح، وتناولت في المحور الأول التعريف ودلالته، وفي المحور الثاني: التنكير ودلالاته، وختمتُ البحث بخاتمة بأهمّ النتائج

The significance of the definition and reasoning in the Holy Quran
(Verses of intolerance and stubbornness model)

By

Abbas Younis Hamza **Dr. Aziz Ali AlQuraishy**

Summary

The definition and reasoning of the prominent phenomena in the Arabic language, distinctive to them, and they are involved in the syntax, both synthetically and semantically, knowledge has a certain significance, as well as negation, has its own significance, it is no coincidence that the name or deny.

The scholars addressed the phenomenon of knowledge and knowledge in their books and studies, and mentioned the sections of knowledge, such as conscience, science, and the name connected, and the name of the sign, and the knowledge of (Al), and others, They spoke in the purposes of definition, whether this definition of conscience or otherwise, and spoke in the reasons of reasoning, when they mention some of the purposes and reasons; they open the door to dive in the rhetoric, and pick up Aldrr, and aware of some of the reasons that were not mentioned; to be extracted by sense and mind and taste

When we stand on this phenomenon in the Holy Quran in general, and the verses of (intolerance and stubbornness) in particular, we draw attention to the accuracy of the choice of the word in terms of definition and reasoning, which highlights the eloquence and beauty of the Quranic systems, through the multiplicity of purposes of reasoning and definition in the Qur'anic context that defines the rhetorical purpose, Both of which are in place, as the context requires .

This section is divided into two parts: the first is the definition and its significance, and the second axis: the reasoning and its implications. The research ended with the conclusion of the most important results .

التعصّب والعناد في اللغة والاصطلاح:

التعصّب في اللغة:

جاءَ في معجم العين: "العُصَبُ: أطنابُ المفاصل الذي يلائمُ بينها، ولحمٌ عصيبٌ: صُلْبٌ كثيرُ العصب، والعَصَبُ: الطيُّ الشديد...واعصوصبَ القومُ: إذا جدُّوا في السير، واشتقاقهُ من اليومِ العصيب، أي: الشديد، وأمرٌ عصيب: أي: شديد...والعصابةُ: ما يُشَدُّ به الرأسُ من الصداع، وما شدّت به غير الرأسِ فهو عُصاب"(٨) .

وجاءَ في لسان العرب: "العَصَبُ: عصبُ الإنسانِ والدابة، والأعصابُ: أطنابُ المفاصل التي تلائمُ بينها وتشُدّها...ولحمٌ عَصِيبٌ: صُلْبٌ شديد، كثيرُ العصبِ...وانعَصَبَ: اشْتَدّ. والعَصْبُ: الطيُّ الشديدُ...والتَعَصُّبُ من العَصبيّة. والعصبيّةُ: انْ يدعو الرجلَ إلى نُصرةِ عَصبته، والتألّبُ معهم، على مَنْ يُناوئُهُم، ظالمينَ كانوا أو مظلومين"(٩)، والظاهرُ ممّا تقدّم أنّ صاحِب اللسان قد اعتمد على (العين) في بيان الدلالة .

العنادُ في اللغة:

جاءَ في العين: "عَنَدَ الرجلُ يعْنُدُ عنْداً وعُنُوداً فهو عاندٌ وعنيد، إذا طغى وعتا، وجاوَزَ قدره، ومنهُ: المعاندة: وهو أنْ يعرف الرجلُ الشيءَ ويأبى أنْ يقبَلَهُ أو يُقرَّ به...وأما العنيدُ فهوَ منَ التجبُّر...ويُقالُ للجبارِ العنيدُ"(١٠) .

وتناولَ صاحبُ اللسان لفظة (عند) بقولهِ: "قال تعالى: {ألْقِيا في جَهنّمَ كلَّ كفّارٍ عنيد}. قال قتادة: العنيدُ المُعْرِضُ عن طاعةِ الله تعالى...عَنَدَ الرَجُلُ يَعْنُدُ عَنْدا وعُنُوداً وعَنَداً: عَتّا وطَغى وجاوَزَ قَدْرَه. ورَجُلٌ عنيدٌ: عاندٌ، وهو من التَجَبُّرِ...والمُعاندةُ والعِنادُ: أنْ يعرفَ الرجُلُ الشيءَ فيَأباه ويميلُ عَنْهُ...وعاندَ مُعاندةً أيْ خالفَ وردَّ الحقّ وهو يعرفُهُ، فهُو عنيدٌ وعاندٌ...العنيدُ: الجائرُ عن القَصْد الباغِيْ الذي يَرُد الحقَّ مع العلمِ به"(١١)، أي أنّ العناد عند أهل اللغة يعني التجبّر والعتو، ومُجاوزة القدْرِ، ومُخالفة الحقِ .

التعصُّبُ في الاصطلاح:

يُعدُّ مصطلح (التعصّب) من المصطلحات التي يتداخلُ فيه (علم النفس)، و(علم الاجتماع)، وذلك عند بعض رجال الدين وعلماء التربية، وله عند كلّ واحد منهم تعريفاً قد يتقارب في بعضه أو يتباعد، وكذلك يختلف عند علماء الغرب عما هو عليه عند العلماء الشرقيين عامةً، وعلماءُ العربِ خاصّة، فهو عند الغربيين أُشتُقَ من (الحكم المسبق) ثُمّ مرَّ هذا المفهوم أو المصطلح بمراحل ثلاث حتى وصل إلى معناه الحالي عندهم (١٢) .

أبدأُ حديثي عن التعصب عند عالم الاجتماع العربي ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) الذي يقول: "فإن الغلب الذي يكونُ به المُلك انما هو بالعصبية وما يتبعها من شدة البأس، وتعوّد الافتراس"(١٣)، والواضِحُ أنّ ابن خلدون يميلُ إلى مدح العصبية العائلية والقبلية، ويعتبرها أحد أهم دعائِم الدولة والخلافة والحكم، ويعدُّها من أهم القوانين الاجتماعية الواجب اتّباعُها في أي شريعةٍ او دعوةٍ دينيةٍ، وإذا ما انتهتِ العصبيّةُ وماتَتْ، بَطُلَتِ الشرائع (١٤) .

والتعصّبُ عند الشيخ مكارم الشيرازيّ (دامَ ظِلّهُ) يأتي بمعنى "الارتباط غير المنطقي

بشيءٍ معيّن إلى درجة أنّ الانسان يضحي بالحق من اجلِ ذلك"(١٥)، وقد أفردَ الشيرازيُّ مبحثاً في كتابه الموسوم (الأخلاق في القرآن) بعنوان: (التعصّبُ والعناد)، تناولَ فيه عدداً من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن سِيَرِ المُرسلين (عليهم السلام) بالبحثِ والتحليل، وبيّنَ أسبابَ انحراف أُممهم عن الحق والدعوة الإلهية، ويتّضِحُ عنده أنّ التعصّبَ والعِنادُ من أهم أسباب انحراف الأقوام، وكذلك التقليدُ الأعمى للعادات والتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد، ويذكرُ بعد سرد مجموعةٍ من الآيات القرآنية مجموعةً من أحاديث نبيّنا الأكرم (صلى الله عليه آله وسلم)، وأيضاً بعض الروايات عن الأئمةِ الاطهار (عليهم السلام)(١٦) .

أمّا علماءُ النفس والتربية فإنّهم يُعرّفون التعصّب بأنّهُ: "عادةً ما يكونُ فكراً مُنْغلقاً في مجالٍ محدد بذاته، مثل: التعصّب الجنسي والتعصّب المعرفي أو العنصري، ويتّصِفُ بأُحادية المدخلات، وإطلاقية الحقيقة والتمامية، وكذا احتمالية استبعاد الآخر"(١٧) .

العِنادُ في الاصطلاح:

لم نقِف عند بحثنا في الكُتُبِ والمصادرِ المتوافرةِ على تعريفٍ مُحدّدٍ لهذا المُصطلحِ عند علماءِ النفس والتربية كما هي الحالُ في مُصطلحِ التعصّب، ولعلّ العلّة في ذلك ارتباط هذا المصطلح وتداخله مع مصطلحاتٍ أُخرى، وقد يكونُ السبب أيضاً ارتباطَ هذه الصفة بالنفسِ الإنسانية، أي هي حالة فردية، وليست حالة جماعية، ولا ظاهرة عامة، إلاّ أنّها قد تكون مُنتشرة بين كثيرٍ من الناس .

وصفةُ العِناد هي النتيجة الحتمية والطبيعية للتعصّب، ولا شكَّ أنّ المتعصّب يكونُ مُعانداً لأيّ رأي او فكرة تُعرض عليه، وهو بذلك لا يستطيع أن يفكّر أو يأخذ الامور بالعقلِ والمنطق، أي أنّ حالته او ما في داخلِهِ من أفكارٍ موروثةٍ، وعقائدَ يؤمِنُ بها لا تسمحُ له حتى بالتفكير الصحيح، والأخذِ بالأسباب المنطقيّة، ومحاولةُ فهمِ الآخر وما يُرادُ منه، وكأنّ الذي أخذهُ وتعلمهُ من أهلِهِ وقومِهِ ومجتمعهِ هو جادةُ الصواب، وهو الحقُّ الذي لا يقبلُ الجِدالَ والنّقاش .

وعند البحثِ في المصادرِ وجدتُ أنّ هذه الصفة مرتبطةٌ بشكلٍ كبير بالأطفال والطفولة، أي أنّ الأطفال هم مَنْ تظهر عليهم هذه الصفة اكثرُ من غيرهم، وهذا دليلٌ على أنّ الإنسان العاقل والرشيد لا يمكنُ أنْ يُعاند، بل يكونُ منفتحاً ومتقبّلاً للمحاورةِ وتبادل الأفكار .

ولعلّ المفسّرون للقرآن الكريم من أوائل الذين أشاروا إلى هذا المصطلح، فنرى الطوسي (قدِّس سرّه) عند تفسيره لقوله تعالى: "{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }"(١٨)، يقول: "العنيد العاتي الطاغي، عند يعند عنداً وعنوداً إذا حاد عنه"(١٩)، ويقول الطبري في معنى لفظة (عنيد): "يعني كلّ مُسْتكبرٍ على اللهِ، جائرٍ عن الحقّ، لا يُذْعِنُ له ولا يَقْبَلُه"(٢٠)، علماً أنّ لفظة (عنيد) تكرّرت في القرآن الكريم في أربعةِ مواضع(٢١)، ولم يرد لفظة (تعصّب) في كلّ القرآن الكريم .

وقد ذكر الشيخ مكارم الشيرازي (دام ظله) العِنادَ بقوله: "يعني الإصرار على شيءٍ معيّن بحيث يسحق تعليمات العقل والمنطق تحت قدمه من أجلِ ذلك"(٢٢) .

ويأتي مصطلح (العناد) مرادفاً لمصطلحاتٍ أُخرى، كالجمودِ الفكري، والتصلّب الذهني، والجمودُ الفكري يعني: "التمسك بأفكار وآراء او معتقدات، وانه يكون على درجات.. اخفها التمسك بأقوال مطلقة من غير دليل، صعوداً غلى مقاومة الأفكار الجديدة، وعدم قدرة الفرد على تغيير سلوك او تصرف يتطلّبه الموقف، وصولا الى الاعتقاد الجازم اليقيني المطلق من دون دليل، وانتهاءً بفرض السلطة على آخر وآخرين. وانه لا يتحدد ببعده الفكري فقط، بل له ابعاد تتعلق بامتداده الزمني والفسلجي أيضا"(٢٣) .

المحور الأول: التعريف ودلالاته:

التعريف في اللغة: جاء في لسان العرب: "التعريفُ: الإِعْلامُ. والتَّعريف أيضاً: إِنشادُ الضالة. وعرَّفَ الضالَّة: نَشَدها"(٢٤) .

التعريف في الاصطلاح: ذهب البلاغيون إلى أنّ "المعرفة ما دلت على شيء بعينه"(٢٥)، والمعارفُ أنواع، وترتيبها كالآتي وحسب الأعرفيّة: (الضمير، العلم، أسم الإشارة، الاسم الموصول، المحلى بأل، المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة، النكرة المقصودة في النداء)(٢٦)، وسأتناول المعارف حسب الترتيب السابق، وحسب وُرُودها في آيات موضوع بحثي .

١ـ التعريف بالضمير: والضمير إما للمتكلّم أو المُخاطَب أو الغائب(٢٧)، والضمائر "ألفاظ موجزة ومختصرة، يُستغنى بها ظاهرةً أو مُضمرة، عن ألفاظ تحتاج عند النطق أزماناً وجهداً أطول وأكثر"(٢٨) .

أـ ضميرُ المتكلّم: قد يأتي التعريفُ بالضمير لمحاولة إظهار حالة التعصّب عن طريق الإعلاء من شأن المُخاطِب، والتقليل من شأن المُخاطَب، نحو قوله تعالى: "{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ}"(٢٩) .

تتناول هذه الآية الكريمة حقيقة ردِّ (الملأ) من مشركي قريش حينما نزل القرآن الكريم وأدهشهم نظمُهُ، وانبهروا بأسلوبه وبلاغته وفصاحته، وأخذ بعضهم يلينُ قلبه للقرآن والإسلام، إلاّ أنّ تعصّبهم وعنادهم، والخوف من خسارة مكانتهم بين الناس كان السبب الرئيس في مُحاربتهم للإسلام الحنيف .

وعند سماعهم للقرآن كانوا يستهزئون به ويُقلّلون من شأنه، وهؤلاء "كانوا يقولون مثل هذا الكلام عندما يعجزون عن مواجهة القرآن ومعارضته، وكانوا يعرفون جيداً أنّهم غير قادرين على معارضة القرآن، إلاّ أنّهم ولحقدهم وعصبيتهم، أو لأنّهم يريدون إضلال الناس، كانوا يقولون: إنّ الإتيان بمثل هذه الآيات غير عسير ولو نشاء لقلنا مثلها"(٣٠) .

والملاحظُ أنّ ذكر الضمير كان سببه المبالغة بالتعصّب والعناد، ويقابله تكرار أسم الإشارة (هذا) الدال على القرآن الكريم، وكان وراء ذكره التقليل والتهوين من شأنه ونظمه، وما ذاك إلاّ تعصّبٌ منهم، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا عليه بعبارة "{أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ}" التي تدلّ على التقليل من شأن القرآن الكريم .

في هذه الآية أكثر من ضمير للمتكلم: ظاهر ومستتر، إذ يتكرّر في (سَمِعْنَا، نَشَاء، لَقُلنَا)، وهذه الضمائر (المعارف)، جاءت لتبيّن وتُظهر هؤلاء الفئة المعاندة، فتكلّمت بلسانهم، وأشارت إليهم بالتحديد دون غيرهم؛ لتفضحهم وتظْهِر حقيقة التعصّب والعناد والكفر في نفوسهم، وتأصلها فيهم، وكذلك فأنّ (ضمير المتكلّم) فيه نوعٌ من الفخر، فهؤلاء كانوا يفتخرون بمحاربتهم للإسلام، وسخريتهم من القرآن الكريم، والآية اللاحقة لهذه الآية تُظهِر تحدّيهم لله ـ عزّ وجلّ ـ في أن لو كان هذا القرآن من عندك وهو الحق، فأمطر علينا مطراً من السماء ! فأيُّ تَحَدّ وعنادٍ هذا ؟! والله أعلم .

ب ـ ضمير المُخاطب: ومنه قوله تعالى: "{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}"(٣١) .

الأصلُ في الخِطاب أن يكون لِمُعيّن، وقد يُترك لغير معيّن(٣٢)، والخطابُ في هذه الآية الكريمة للرسول الأكرم (ﷺ)؛ ليحذرَ هؤلاء الفئة الضالة والمعاندة التي كانت تمكرُ وتخطط للتخلّص من نبي الرحمة (ﷺ)، بأخسّ الطرائق والأساليب، ومما يدعو إلى التأمّل "أنّ الإلتجاء إلى هذه الأساليب الثّلاثة: السجن والنفي والقتل، لم يكن منحصراً بالمشركين في مواجهة النبي (ﷺ) فحسب، فإنّ الطغاة يلجؤون إلى هذه الأساليب الثّلاثة دائماً؛ للقضاء على المُصلحين وإسكاتهم"(٣٣) .

تكرر في هذه الآية الكريمة ضمير المُخاطب مرات عدّة، نحو: (بِكَ، لِيُثْبِتُوكَ، يَقْتُلُوكَ، يُخْرِجُوكَ)، والمُخاطب في كلّ هذه الضمائر هو النبي الأكرم (ﷺ) لتحذيره من مَكْرِهم .

وهؤلاء الذين تولّوا المكرَ والخديعة هم كبار المشركين وسادتهم، وأعوانهم، الذين كان دأبهم الطعن الإسلام ونُبوّة الرسول الأكرم (ﷺ)، وفي نزول القرآن عليه، لتفريق الناس عن الدين الجديد(٣٤)، وجاء ضمير

المُخاطب أيضاً لبيانِ حقيقة مؤامرة هؤلاء على الإسلام ونبيّهِ، فهو الهدف والغاية الأساس لمؤامراتهم وخُططهم الشيطانية، والله أعلم .

ج ـ ضميرُ الغائب: نحو قوله تعالى في المقطع الأخير من الآية السابقة: "{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}" .

يُصوّرُ هذا المقطع من الآية الكريمة لقاء هؤلاء الفئة من قريش للتخطيط والتفكير بأفضل حيلة للتخلّص من رسول الإسلام، وهذه الصورة المرسومة "صورة عميقة التأثير.. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون.. والله من ورائهم محيط، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون! إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل، من تلك القدرة القادرة.. قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط؟"(٣٥) .

الضميرُ الغائب في موضع الشاهد "{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ}" تقديره: (وهُم يمكرون)، والغرضُ منه الإيجاز والاختصار، وقد يكون للتقليل؛ لأنّ وجودهم لا يُوازن بوجود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويدلُّ أيضاً على التحقير والتصغير؛ لأنّ مَنْ لا قيمةَ لهُ لا يُذكر، ويمكن أن نُوجز أغراض الضمائر بأنها خرجت للإيجاز والاختصار والتقليل، والله أعلم .

٢ـ التعريفُ بالعَلَمِيّة: يَرد التعريف بالعلمية لأغراض بلاغية عديدة، منها: التبرك، والتلذذ، والمدح، والذم، وورد التعريفُ بالعلمية لغرض الذم في الآيات القرآنية الدالة على التعصب والعناد، ومنه قوله تعالى: "{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {} إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ}"(٣٦) .

جاءت الآيتان المباركتان في سياق الحديث عن الأقوام الكافرة والمشركة، ومن بين هذه الأقوام الكثيرة الذكر في القرآن الكريم (قوم فِرعون)، وفِرعون يُعدّ واحداً من أشهر الطواغيت والعتاة، الذين وقفوا في وجه نبي الله موسى، وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ .

موضع الشاهد هو قوله تعالى:"{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}" وجاء التعريف بالعلمية هنا للذم والتوبيخ؛ لأنّ ما جاءَ به موسى وهارون (عليهما السلام)، هو الدليل والمنطق الواضح، إلا أنّ الاستكبار والعناد المتأصلان في هذا الطاغية جعلا من دليل وحجة موسى وكأنّه ينفخ في هواء.

والواضحُ أنّ الآيتين الكريمتين تتحدثان عن فرعون وملئِهِ، أي المجتمع المترف المعاند، ولم يشمل الحديثُ عامّة الناس، ولعلّ السبب في ذلك أنّ هذه الطبقة هي التمثّل أصل الفساد والانحراف، وفساد هؤلاء يفسد

المجتمع، وصلاحهُم يُصْلِح المجتمع، ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم يركّز في أكثر آياته على هؤلاء الطبقة (٣٧)، ثُمّ عطف {فَاسْتَكْبَرُوا} بفاء التعقيب، وذلك إشارة لعدم تأمّل الدعوة والحجة الواضحة، وأنّ هؤلاء أفرطوا في الكبرياء، وأفادت (السين، والتاء) التوكيد، أي: تكبّر هؤلاء تكبّراً شديداً، ولم يُعيروا لآيات موسى (عليه السلام) وحججِهِ أُذُنا صاغية (٣٨)، والله أعلم .

٣ـ التعريف بإسم الإشارة: قد يأتي التعريف بإسم الإشارة في محاولة للتقليل والإنكار، وفرض حالة التعصّب والعناد، كما في قوله تعالى: "{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ}"(٣٩) .

موضوع الشاهد في الآية المباركة هو "{هَذَا إِلَّا بَشَرٌ}"، وتُوضّحُ هذه الآية المباركة بمجملها موقف المشركين وهُم يُنْذَرُونَ باقتراب حسابهم، واقتراب يوم القيامة، وبَدَل أن يستمعوا ويتفكّروا بهذه التحذيرات والنصائح لهم كانوا يلهون ويلعبون، وإنّ "أحد أسباب شقاء الجهلة والمتكبّرين هو إتّخاذهم النصائح ومواعظ الأخيار لهواً ولعباً دائماً، وهذا هو السبب في عدم تنبّههم من غفلتهم، في حين أنّهم لو تعاملوا بصورة جديّة مع تلك النصائح ولو مرّة واحدة، فربّما تغيّر مسير حياتهم في تلك اللحظة !"(٤٠) .

وهؤلاء الغافلون الضّالون، وعلى الرغم من "موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن، فكانوا يلجأون في مقاومة تأثيره الطاغي إلى التعلّات، يقولون: إنّ محمداً بشر. فكيف تؤمنون لبشر مثلكم؟ وإنّ ما جاء به السحر. فكيف تجيئون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون؟!"(٤١)، ومع التأثير الطاغي للقرآن الكريم عليهم، إلاّ أنّهم حاولوا بشتى الوسائل الوقوف ضد القرآن الكريم والإسلام، بسبب عنادهم وتعصّبهم وتحجّر عقولهم .

إنّ التعريف بـ (هذا) وفيه إشارة إلى الرسول الكريم محمد (ﷺ) دلَّ على التقليل، وكذلك دلّ على الإنكار، والذي يُزيدُ الإنكار شدّةً هو مجيء الاستفهام (هل) التي تتسق مع المعنى المتقدّم، وتزيدُ في أبعاده .

جاء القرآن الكريم بهذه الصيغة؛ ليُبيّن حقيقة ما في قلوبهم من حقدٍ وضغينة تجاه الرسول الكريم، وما فيهم من تعصّب وعناد، ولهذا اتّهموه (صلى الله عليه وآله وسلّم) بأنّه يأتي بالسحر، أو أنّه افترى القرآن الكريم، أو هو كذّاب (حاشاه) ـ كما في الآيات اللاحقة ـ وكل هذه الاتهامات والأكاذيب تدل على عجزهم على مواجهة القرآن الكريم والإسلام بالعقل والمنطق، والبلاغة والفصاحة، ولهذا وجدوا ضالتهم في اختلاق الأكاذيب والاتهامات، والله أعلم .

٤ـ التعريف بالاسم الموصول: ذهب علماء البلاغة والنحو إلى أنّ الاسم الموصول من الأسماء المُبهمة، ولذلك يحتاج إلى الصلة، فالصّلةُ هي التي تزيلُ الإبهام (٤٢)، والتعريف بالاسم الموصول يخرج إلى أغراض ومعان عدّة (٤٣)، ومن هذه المعاني التي تدلّ على الإنكار والتقليل الممزوج بالتعصّب، قوله تعالى: "{وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}"(٤٤) .

هذه الآية الكريمة تُبيّن موقف العداء الأعمى، والتعصّب الأَصم للنبيّ الأكرم (ﷺ) وللقرآن الكريم من قِبلِ الكفار، وعن طريق كلامهم، وأُسلوب خطابهم يظهر بجلاء وقاحتهم، وسوء الأدب الذي انمازوا به عند مُخاطبتهم للنبي (ﷺ)(٤٥)، فهؤلاء القوم "ينكرون الوحي والرسالة؛ ولكنهم يتهكمون على الرسول الكريم بهذا القول الذي يقولون"(٤٦) .

وكان خطابهم للنبيّ الأكرم (ﷺ)، وكلامهم "خارج مخرج الاستهزاء، ولذلك خاطبوه (ﷺ) لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدعيه، وجاؤوا بالفعل المجهول للدلالة على أن منزله غير معلوم عندهم"(٤٧) .

يذهب صاحب التحرير والتنوير إلى أنّ النداءَ في هذه الآية الكريمة للتشهير، وجاء اختيار الموصولية (التي)؛ لأنّ في الصلة معنى التهكّم، وقرينة التهكّمِ قولهم (إنّك لمجنون)، وكان الغرض من قولهم هذا هو الاستهزاء، لكن الله ـ عزّ وجلّ ـ أنطقهم بالحق صرفاً لألسنتهم عن الشتم(٤٨) .

ويرى الباحث أنّ الاسم الموصول (الذي) جاء هنا للإنكار، فالآية الكريمة كلّها في معنى السخرية والاستهزاء من شخصه العظيم ومن القرآن الكريم، وجاء التعريف هنا بـ (الذي)، تجنّباً لذكر اسمه الصريح (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو ذكره بإحدى ألقابه، وكان قصد المشركين المعاندين السخرية والاستهزاء، والله أعلم .

٥ـ التعريف بـ (أل) : يُقسّم علماء البلاغة (أل) التعريف على قسمين رئيسين، الأول: للعهد، والثاني: للجنس، وينقسمُ كلٌّ منهما إلى أقسام عديدة (٤٩)، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: "{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}"(٥٠) .

جاءت هذه الآية الكريمة في بداية سورة (البيّنة)، وابتدأت السورة بالحديث عن (أهل الكتاب)، وموقفهم من الدعوة الإسلامية، بعد أنْ سطعت لهم أنوار الحق، وبعد أنّ عرفوا أوصاف النبيّ المبعوث لهم، والذي كانوا ينتظرون بعثته وظهوره، فلما بُعث هذا النبيُّ المُنتظر كذّبوا برسالته، وكفروا وعاندوا، ووقفوا في وجه دعوته (٥١) .

موضعُ الشاهد في الآية المتقدمة هو قوله تعالى: {المشركين}، والتعريفُ هنا للعهد، إذ سبقَ ذكرُ هذه الفئة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، والتعريفُ ـ كما هو معلوم ـ يفيد التخصيص، وهنا أفادت تخصيص المشركين من عبدة الأوثان والأصناف في شبه الجزيرة العربية، والمناطق المحيطة بها، وذلك لتمييزهم وفضحهم، لأنّهم كانوا يقولون قبل مبعث النبيّ الأكرم (ﷺ): لا ننفك ولا نترك ديننا حتى يُبعثُ النبيّ الموعود، المذكور في التوراة والإنجيل، وعند البعث كفروا وعاندوا مع علمهم المُسبق ببعثه (٥٢) .

ومما يُلفت النظر في هذه الآية المباركة، تقدّم ذكر (أهل الكتاب) على (المشركين)، وهذا يعود في الظاهر إلى أنّ (أهل الكتاب) كانوا الروّاد في هكذا مواقف، وكان (المشركون) تابعين لهم، أو لأنّ (أهل الكتاب) يستحقّون الذمّ أكثر من (المشركين) لأنّهم أهل علمٍ بمبعث النبي الأكرم (ﷺ) ولذلك كان عنادهم ومعارضتهم أفظع وأبشع من غيرهم، وتستحق مزيداً من التقريع والتوبيخ (٥٣)، والله أعلم .

٦ـ التعريف بالإضافة: يأتي التعريف بالإضافة لمعانٍ بلاغية كثيرة، منها: (التعظيم، والتحقير، والتحريض على الإذلال، والاستهزاء،...ألخ)(٥٤) ، ومنه قوله تعالى: "{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ}"(٥٥) .

الظاهر من الآية الكريمة أنّها تبحث عقوبة الكافرين والمجرمين، وتذكُرُ جانباً من جوانب العذاب الروحي والجسمي الذي سيصيبهم نتيجةً لأفعالهم الشيطانية، وإنغماسهم في التمتّع بالشهوات واللذات الدنيوية، من أجل التحرر من كل القيود في هذا المجال، وأنكروا المعاد ليطلقوا لأنفسهم العنان، وسخّروا كل الموارد من أجل إنزال الظلم والجور في الآخرين(٥٦) .

الشاهد في الآية المباركة قوله تعالى: "{عَذَابَ الْهُونِ}"، و "{بِغَيْرِ الْحَقِّ}"، ومعنى الهُون: الهوان، وهو الذُل، وجاء إضافة ((عذاب)) إلى ((الهون)) من إضافة الموصوف إلى الصفة، وجاء (الباءُ) في قوله تعالى: "{بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ}" للسببية، ومتعلقة بالفعل (تجزون)، والاستكبار هنا بمعنى الاستكبار على الرسول الكريم (ﷺ)، وعلى قبول التوحيد والإيمان بالله (عزّ وجلّ)، والفسوق هنا بمعنى الشرك (٥٧)، والتعبير بـ "{بِغَيْرِ الْحَقِّ}" لا يعني أنّ هناك نوعان من الاستكبار، بل هو من باب التأكيد؛ لأنّ هذه التعابير تُقالُ عادةً للتأكيد (٥٨) .

وجاء التعريف بالإضافة (عَذابَ الهُونِ) للدلالة على الإهانة والإذلال، فهؤلاء الكافرون لا يُصْلَوْنَ العذاب فقط، بل عذاباً ممزوجاً بالإهانة والإذلال؛ نتيجة استكبارهم وعنادهم، وترفّعهم عن الإيمان بالله ـ عزّ وجلّ ـ

ولا حقَّ لهم في ذلك لأنّه ينبغي عليهم التسليم التام لخالقهم (سبحانه وتعالى)، وعدم الاستكبار والترفع، وإلا كانت هذه النتيجة السوداوية المُهينة حتمية، والله أعلم .

المحور الثاني: التنكير ودلالاته:

التنكير في اللغة: جاء في لسان العرب: "النَّكِرَةُ إِنكارك الشيء، وهو نقيض المعرفة. والنَّكِرَةُ: خلاف المعرفة. ونَكِرَ الأَمرَ نَكِيراً وأَنْكَرَه إِنْكاراً ونُكْراً: جهله"(٥٩)، أي أنّ التنكير في معناه اللغوي هو الجهل بالشيء وعدم معرفته .

التنكير في الاصطلاح: النكرة في الاصطلاح: "ما دلت على شيء لا بعينه"(٦٠)، وهي "أسمٌ يطلق على القليل والكثير، أو على مفرد، أو على أكثر، ومعناه شائع في جنس، أو نوع، أو صنف، أو نحو ذلك، وهذا يصدق بالمثنى والجمع"(٦١) .

يخرج التنكير إلى معانٍ بلاغية أُخرى غير المعاني الأصلية، ومن معانيها ودلالاتها: "الدّلالة على الفردية أو النّوعية. التّعظيم أو التّحقير، أو التّكثير أو التّقليل. قصد التّمويه والإخفاء. عدم الرغبة في الحصر والتخصيص"(٦٢)، وهذه المعاني تستفادُ من السياق لا من التنكير فقط، والسياقُ هو الذي يدلنا على المُراد من هذا التنكير(٦٣)، ومن أنواع التنكير:

١ـ تنكير المُسند إليه :

يذهب البلاغيون إلى أنّ (النكرة) :"اسمٌ يطلقُ على القليل والكثير، أو على مفرد، أو على أكثر، ومعناه شائع في جنس، او نوع، أو صنف، أو نحو ذلك"(٦٤) .

ويأتي المُسندُ إليه نكرة ـ والأصل أن يأتي معرفة ـ لإفادةِ أنُّه فردٌ غيرُ معيّن من أفراد جنسه، أو قد يأتي لإفادة النوعية، أو الجنس، فإذا قلنا: جاءنا رجل، يصلح هذا القول لمعنى الإفراد، أي: رجلٌ لا رجلان، ويصلحُ أيضاً لإفادة النوعية، أي: جاءنا رجل لا امرأة، وهذه الإفادة إفادة أصليةٌ للنكرِة، وقد تأتي النكرة للدلالة على العدد (٦٥) .

ـ يأتي تنكيرُ المسند إليه لغرض التكثير والتعظيم، ومنه قوله تعالى : "{كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}"(٦٦) .

تُوضّحُ هذه الآية المباركة أنّ دأبَ الأقوام السابقين لرسالة الإسلام هو تكذيب المُرسلين، وعصيانهم والتعصّب في ذلك، واتّهامهم بالسحر والجنون، كما هو الحال مع النبيّ الأكرم (ﷺ) .

إنّ الأقوام السابقة "كانوا يتّهمون الرسل السابقين بأنّهم سحرة؛ لأنّهم لم يجدوا جواباً منطقياً لمعاجزهم الباهرة، وكانوا يخاطبون رسولهم بأنّه ((مجنون)) ..لأنّه لم يكن على غرارهم ومتلوّناً بلون المحيط ومستسلماً للأُمور الماديّة"(٦٧) .

جاءت لفظة (رسولٍ) في هذه الآية المباركة نكرةً، والغرض من هذا التنكير هو التكثير والتعظيم، أي أنّهم كانوا يقولون بتكذيب كل الرُسُل مهما كان عددهم، وأنّ قولهم هذا كان عظيماً عند الله، لأنّهم يتّهمون أعقل الناس وأكثرهم حكمةً وعلماً، مع أنّ سيرة هؤلاء الأنبياء معروفة عندهم، إلاّ أنّ التعصّب للعقائد الموروثة، والعناد في قبول دعوة الحق الإلهي، هي التي أوصلتهم إلى ما وصلوا إليه .

وقد يكون سبب المجيء بـ (مِن) لإفادة العموم، أي: كلُّ رسولٍ من المُرسلين قال فيه فريقٌ من قومه: هو ساحر، وقال فريقٌ آخر: هو مجنون، وهذا العموم أفادَ أنّهُ لم يخْلُ قومٌ من هذه الأقوام المذكورة إلا قالوا لرُسُلِهِم أحَدَ القوليين (٦٨)، والآية الكريمة والآيات التي بعدها هي في مجملها تسليةٌ للنبي الأكرم (ﷺ)، وتسليةٌ لأصحابه ومن آمن به (٦٩)، والله أعلم .

يلاحظُ أنّ التنكير كثير الورود عند ارتباطه بالأقوام العاصية للرسل، وتدخل الآيات الواردة في هذا الصدد ـ في مجملها ـ في ماهيّة تسلية الرسول الأكرم (ﷺ)، ومنها قوله تعالى: "{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }"(٧٠) .

تأتي هذه الآية المباركة بعد جملة من الطلبات التي طلبها المعاندون والمتعصّبون من أنبيائهم ورُسُلهم على مرّ العصور، منها أن يكون الرسُولُ المُرسل إليهم مَلَكاً وليس بشراً، فهُمْ يرون أن بشريّة الرُسُل إنّما هي مذمّة وانتقاص، فليس من المعقول أن يؤمنوا لبشر! وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة مراتٍ عديدة .

جاءت لفظة (برسلٍ) منّكرة، والتنكير فيها للتكثير والتعظيم، أي: عددٌ كثيرٌ من الرُسُل كُذِّبوا من أقوامهم، مع أنهم أتوا بآيات ودلائل عظام على صدق رسالتهم، إلاّ أنّ الردّ كان التكذيبُ والكفر، وفي ذكرِ ما حلّ بالرُسُل، تسليةٌ للنبيّ الأكرم (ﷺ) "يطلب الله فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، ويهدد في الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكّروا في عاقبة أمرهم المؤلمة"(٧١)، الله أعلم .

٢ـ تنكير المُسند:

يرى البلاغيون أنّ المُسند يأتي معرفةً ونكرة، والتعريفُ والتنكير إنما يكون لأغراض بلاغية، ومنها: (عدم الحصر والعهد الدال عليهما التعريف، وإرادة التفخيم والتعظيم، وإفادة التحقير والتهوين...إلخ)(٧٢)، وقد يأتي تنكير المُسند لبيان حالة التقليل والتصغير للأنبياء والرسل على لسان أقوامهم المعاندين، ومنه قوله تعالى: "{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ }"(٧٣) .

توضّحُ هذه الآية الكريمة مقالةَ الملأ المعاندين من قوم نوح (عليه السلام)، وكيف أنّهم افتروا على نبيّهم مختلف الاكاذيب ليصدّوا الناس عن الاستماع لرسالة الحق السماوي، فقالوا: إنّ هذا الشخص الذي يدّعي بأنّه رسولُ الله إليكم ما هو إلاّ بشرٌ مثلكم في الجنس والوصف، من غير فرقٍ بينكُم وبينه، وهو يطلبُ الفضل عليكم ويتقدّمكم بادّعاء الرسالة، مع أنّهُ في الحقيقة مثلكم، ووصفوه بذلك إغضاباً للمخاطبين، وإغراءً لهم على معاداته(٧٤) .

وبقولهم هذا ـ أعني الملأ ـ إنما أحيوا فيهم العصبية، وأشعلوا فيهم نار الحميّة، فأخذوا يتساءلون في أنفسهم: كيف لشخصٍ عاديّ لا يختلفُ عنّا في شيء أنْ يدّعي النبوّة؟ وبهذه الخدعة وغيرها، استطاع الملأ تحشيد عوام الناس ضدّ نوح (عليه السلام)، وبذلك حافظوا على مكانتهم في المجتمع .

جاءت لفظة (بشر) نكرةً، والغرضُ من هذا التنكير هو التحقير والتصغير، والتقليل من شأن نبي الله نوح (عليه السلام)، وذلك بقرينة (هذا)، واسم الإشارة منصرفٌ إلى نوح (عليه السلام)، ومن المرجّح أنّ هذا الكلام وقع بحضرة نوح، فعدلوا من التصريح باسمه إلى اسم الإشارة؛ لأنّ غرضهم هو تصغير أمره، وتحقيره لدى العامّة (٧٥)، والله أعلم .

ـ وقد يأتي تنكيرُ المُسند للتحقير والإهانة، ومنه قوله تعالى: "{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ}"(٧٦) .

جاءت هذه الآية المباركة أيضاً في سياق الحديث عن قوم نوح (عليه السلام)، وكيف أنّهم كذّبوه ووقفوا في وجه هذا النبي الكريم، بسبب تعصّبهم وعنادهم، والملاحظُ أنّ الآية الكريمة بدأت بـ (كَذّبتْ)، ثمّ جاءت لفظة (فَكَذّبُوا)، وفي هذا التكرار دلالة على استمرار هؤلاء وإصرارهم على التكذيب، وعلى طول مدّة دعوة النبي نوح (عليه السلام) .

وجاء تنكيرُ المُسند (مجنونٌ) للتحقير والإهانة؛ لإبعاد الناس عن دعوة نوح (عليه السلام)، فالمجنون لا يُقبلُ منه كلامه، ولا يسمعُ له الناس، وفي كلمة (وازدُجِر) أيضاً دلالة التهوين والتحقير، والله أعلم .

ـ وقد يأتي تنكيرُ المُسند ليبيّن حالة تقليل العصاة المتعصّبين وتحجيمهم، نحو قوله تعالى: "{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}"(٧٧) .

يتبيّن من هذه الآية المباركة أنّ (اليهود والنصارى) ادّعوا أنهم مفضلون عند الله سبحانه وتعالى، وأنّ الله يُحبّهم ويجعل لهم مكانةً خاصة دون سائر الناس، وهذه الأفكار والعقائد المنحرفة بعيدةٌ كل البعد عن العقل والمنطق، ويبدو أنّ هؤلاء لم يدّعوا البنوّة الحقيقية، كمّا يدّعيه معظم النصارى للمسيح (عليه السلام)، وإنما كانوا يطلقونها على أنفسهم من باب التشريف، وبنوعٍ من التجوّز(٧٨)، ومن الواضح أنّ الإسلام حارب كل هذه الميزات والدعاوى الوهمية، فليس للإنسان في الإسلام امتيازاً إلاّ بالإيمان والعمل الصالح والتقوى(٧٩) .

إنّ مجيء لفظة (بشرٌ) نكرةً أفادت التقليل؛ للحدّ من التفخيم والمغالاة التي كانوا يدّعونها، وميّزوا أنفسهم بها عن سائر البشر، وكذلك أفادت النوعية، فهُم من البشر، ووجود (إنما) أفادت معنى القصر، أي قصرهم على البشرية، وليس فيهم ما يُميّزهم عن غيرهم .

وفي هذا التنكير أيضاً معنى التعريض، أي أنّ المسيح الذي تدّعون بنوّتَهُ هو أيضاً بشر؛ لأنّهُ ينالُهُ ما ينالُ البشر من الخوف والأعراض، وزعموا أنّه ناله الصلب والقتل (٨٠)، فكيف يجوز أن ينالهُ الموت إن كان مثلما يدّعون ويؤمنون؟! والله أعلم .

الخاتمة وأهمّ النتائج:

هذه هي أهم الأغراض البلاغية التي خرج لها التعريفُ والتنكير بصورة عامة، والآيات القرآنية التي استشهدنا بها إنما هي للتمثيل لا الحصر، وكما رأينا في هذا البحث، فإنّ اكثر المعاني والأغراض البلاغية إنما خرجت للسخرية والاستهزاء والتقليل من شأن الأنبياء والمرُسلين، وأسباب ذلك تكمُنُ في تعصّب هذه الأقوام للعقائد والتقاليد الموروثة، وبالتالي التعنّت واللجاج في مقابل الإذعان لأوامر الله (عزّ وجلّ)، والتمسّك برسالة السماء؛ لأنها هي الوحيدة التي تجلبُ لهم سعادة الدارين .

ومن أهمّ نتائج البحث:

١ـ أغلبُ المعارف المُشخّصة في الآيات المدروسة كانت (الضمائر، التعريف بالعلمية، التعريف بإسم الإشارة، التعريف بالأسم الموصول، التعريف بـ أل، التعرف بالإضافة) .

٢ـ أكثر المعاني والدلالات التي وجدناها في التعريف كانت تهوين وتقليل الأقوام الكافرة من شأن الأنبياء والمُرسلين، وأيضاً تحقيرهم والسخرية منهم، وكذلك التخصيص، فقد خصّت بعض الآيات الأقوام الكافرة بالذمّ والتوبيخ، وكشفت البعض منها تعصّب وعناد هذه الأقوام، وكشفت عن مؤامراتهم وحذّرت المسلمين منهم .

٣ـ التنكيرُ في الآيات المدروسة انقسمت على أكثر من قسم، وكانت أغراضُ التنكير هي: التكثيرُ والتعظيم للأنبياء والرُسُل من قِبَل الله ـ عزّ وجلّ ـ والرفعُ من شأنهم، أمّا الأقوام الكافرة فكان هدفهم تحقير وتصغير الأنبياء والمرسلين، وكذلك إهانتهم والتقليل من شأنهم (صلوات الله عليهم)، وكُلُّ هذا يدلّ على ما في نفوسهم من تعصّب وعناد وتقليدٍ أعمى .

ثبت المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم:

أولاً: المصادر والمراجع:

- الاتجاهات التعصبية، تأليف: الدكتور معتز سيد عبدالله، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩م، د. ط .
- الأخلاق في القرآن، لآية الله الشيخ مكارم الشيرازي، نشر مدرسة الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ـ قم، ط٢، ١٤٢٦هـ .
- أساليب بلاغية/ الفصاحة ـ البلاغة ـ المعاني: الدكتور أحمد مطلوب، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٨٠م .
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: تأليف العلامة الفقيه المفسّر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، إيران، قم، المطبعة: أمير المؤمنين، قم، إيران، ط١، ١٣٧٩هـ ش، ١٤٢١هـ.
- بلاغة التراكيب/ دراسة في علم المعاني: تأليف أ. د توفيق الفيل، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ط، د. ت .
- البلاغة العربية/ أسسها وعلومها وفنونها: تأليف وتأمّل عبد الرحمن حسن حبنّكه الميداني، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م .
- البلاغة فنونها وأفنانها/ علم المعاني: تأليف الدكتور فضل حسن عباس، منشورات دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط٤، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م .
- البلاغة والأسلوبية: تأليف الدكتور محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، ط١، ١٩٩٤م .

- التبيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ)، قدم له: الإمام المحقق الشيخ آغا بزرك الطهراني، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، د. ط. ت .
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن: ابن الزملكاني، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، الدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٤م .
- التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل: تأليف الدكتور محمود أحمد نحلة، د. ط، د. ت .
- تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العَمادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د.ت .
- تفسير التحرير والتنوير: تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د. ط، ١٩٨٤م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، د. ط. ت .
- الجمود الفكري والتطرف، مقال للدكتور قاسم حسين صالح في جريدة المدى، العدد (٣٣٢٤) .
- خصائص التراكيب ودلالاتها في القصص القرآني: تأليف عمر إسماعيل أمين البرزنجي، صفحات للدراسات والنشر، سورية، دمشق، ط١، ٢٠١٧م.
- صفوة التفاسير: تأليف محمد علي الصابوني، منشورات دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م .
- الطراز: للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، سيدا، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م .
- علم المعاني/ دراسة بلاغية نقدية لمسائل المعاني: تأليف الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م .
- علوم البلاغة/ البيان والمعاني والبديع، تأليف أحمد مصطفى المراغي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م .
- في ظلال القرآن: تأليف سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية٣٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م .
- الكتاب (كتاب سيبويه): أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م .
- كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ ـ ١٧٥هـ)، ترتيب وتحقيق: الدكتور عبدالحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٣٣م .
- الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل احمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد عوض، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م .
- لسان العرب: تأليف الإمام العلّامة جمال الدين إبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، حقّقه وعلّق عليه: الدكتور أحمد سالم الكيلاني، والدكتور حسن عادل النعيمي، مركز الشرق الأوسط الثقافي للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م .

- لسان العرب، تأليف الإمام العلّامة جمال الدين إبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، حقّقه وعلّق عليه: الدكتور أحمد سالم الكيلاني، والدكتور حسن عادل النعيمي، مركز الشرق الأوسط الثقافي للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن: للشيخ الإمام العلامة أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م .
- معجم المصطلحات التربوية والنفسية، إعداد: أ.د حسن شحاته، وأ.د زينب النجار، مراجعة: أ.د حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م .
- مقدمة ابن خلدون، تأليف العلامة عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، دراسة وتحقيق وتعليق: الدكتور علي عبدالواحد وافي، دار نهضة، مصر، ط٧، ٢٠١٤م .
- منطق ابن خلدون، تأليف: الدكتور علي الوردي، دار كوفان، لندن، توزيع دار الكنوز الأدبية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٩٤م .
- الميزان في تفسير القرآن: للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، صحّحه وأشرف على طباعته: فضيلة الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م .

الهوامش:

(١) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: ٢٩٦ .

(٢) الكتاب : ١/ ٢٢ .

(٣) ينظر: البلاغة والاسلوبية، د. محمد عبد المطلب: ٣٣٩ .

(٤) سورة الإسراء/ دراسة بلاغية دلالية (رسالة ماجستير) : ٩٠ .

(٥) التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل: ٢١٥ .

(٦) معترك الأقران: ٣/ ٤٧٢ .

(٧) ينظر: خصائص التراكيب ودلالاتها في القصص القرآني: ١٩٠ .

(٨) كتاب العين مرتبا على حروف المعجم: ٣/ ١٦٦ .

(٩) لسان العرب: مادة (عصب) .

(١٠) كتاب العين مرتبا على حروف المعجم: ٣/ ٢٣٥ .

(١١) لسان العرب: مادة (عند) .

(١٢) ينظر: الاتجاهات التعصبية: ٤٢ .

(١٣) مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٥٣٨ .

(١٤) ينظر: منطق ابن خلدون: ٩٣ ـ ٩٤ .

(١٥) الاخلاق في القرآن: ٢/ ١٨١ .

(١٦) الأخلاق في القرآن: ٢/ ١٨١ ـ ٢٠٦ .

(١٧) معجم المصطلحات التربوية والنفسية، د. حسن شحاته، ود. زينب النجار: ١٠٩ .

(١٨) هود: ٥٩ .

(١٩) التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ١٤ .

(٢٠) تفسير الطبري: ١٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢١) ينظر: هود: ٥٩، وإبراهيم: ١٥، و ق: ٢٤، والمدّثر: ١٦ .

(٢٢) الأخلاق في القرآن: ٢/ ١٨١ .

(٢٣) الجمود الفكري والتطرف: د. قاسم حسين صالح، مقال في جريدة المدى، العدد ٣٣٢٤ .

(٢٤) لسان العرب: مادة (عرف) .

(٢٥) الطراز: ٢/ ٨، وينظر: التبيان في علم البيان، ابن الزملكاني: ٥٠ .

(٢٦) ينظر: البلاغة العربية/ أسسها وعلومها وفنونها: ١/ ٣٩٧ .

(٢٧) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: ٢٩٧ .

(٢٨) البلاغة العربية/ أسسها وعلومها وفنونها: ١/ ٤١١ .

(٢٩) الأنفال: ٣١ .

(٣٠) الأمثل: ٥/ ٤١٤ .

(٣١) الأنفال: ٣٠ .

(٣٢) ينظر: أساليب بلاغية: ١٤٤ .

(٣٣) الأمثل: ٥/ ٤١٢ .

(٣٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/ ٣٢٩ .

(٣٥) في ظلال القرآن: ١٥٠١ .

(٣٦) المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦ .

(٣٧) ينظر: الأمثل: ١٠/ ٤٥٨ .

(٣٨) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ٦٣ .

(٣٩) الأنبياء: ٣ .

(٤٠) الأمثل: ١٠/ ١٢٢ .

(٤١) في ظلال القرآن: ٢٣٦٧ ـ ٢٣٦٨ .

(٤٢) البلاغة فنونها وأفنانها: ٣٠٧، وينظر: خصائص التراكيب: ١٩٤ .

(٤٣) ينظر: البلاغة العربية/ أسسها وعلومها وفنونها: ١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٥، والبلاغة فنونها وأفنانها: ٣٠٧ ـ ٣١٠ .

(٤٤) الحجر: ٦ .

(٤٥) ينظر: الأمثل: ٨/ ١٥ .

(٤٦) في ظلال القرآن: ٢١٢٧ .

(٤٧) الميزان في تفسير القرآن: ١٢/ ٩٦ .

(٤٨) ينظر: التحرير والتنوير: ١٤/ ١٦ .

(٤٩) ينظر: علم المعاني، د. بسيوني: ١٢٩، والبلاغة فنونها وأفنانها: ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٥٠) البينة: ١ .

(٥١) ينظر: صفوة التفاسير: ٣/ ٥٨٦ .

(٥٢) ينظر: الكشاف: ٦/ ٤١١ .

(٥٣) ينظر: الأمثل: ٢٠/ ٣٦٠ .

(٥٤) ينظر: بلاغة التراكيب/ دراسة في علم المعاني، د. توفيق الفيل: ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٥٥) الأحقاف: ٢٠ .

(٥٦) ينظر: الأمثل: ١٦/ ٢٧٦ .

(٥٧) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٤٣ .

(٥٨) ينظر: الامثل: ١٦/ ٢٨٠ .

(٥٩) لسان العرب: مادة (نكر) .

(٦٠) الطراز: ٢/ ٨ .

(٦١) البلاغة العربية/ أسسها وعلومها وفنونها: ١/ ٣٩٦ .

(٦٢) البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب: ٣٤١ .

(٦٣) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: ٣٢٩ .

(٦٤) البلاغة العربية/ أسسها وعلومها وفنونها: ١/ ٣٩٦ .

(٦٥) ينظر: علم المعاني، د. بسيوني: ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٦٦) الذاريات: ٥٢ .

(٦٧) الامثل: ١٧/ ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٦٨) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢١ .

(٦٩) ينظر: الأمثل: ١٧/ ١٢٧ .

(٧٠) الأنعام: ١٠ .

(٧١) الامثل: ٤/ ٢١٩ .

(٧٢) ينظر: علم المعاني، د. بسيوني: ١٨٨ ـ ١٨٩، وعلوم البلاغة، د. مصطفى المراغي: ١٢٨ .

(٧٣) المؤمنون: ٢٤ .

(٧٤) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٣٠ .

(٧٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨/ ٤٢ .

(٧٦) القمر: ٩ .

(٧٧) المائدة: ١٨ .

(٧٨) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٥/ ٢٥٣ .

(٧٩) ينظر: الامثل: ٣/ ٦٥٤ .

(٨٠) ينظر: التحرير والتنوير: ٦/ ١٥٧ .